أثر الاستفهام في البُنى التركيبية في سورة الأنعام "دراسة سياقية دلالية"

د. حسين عبد الله الموساي

استاذ اللغة العربية المساعد – كلية التربية – جامعة إقليم سبأ – مأرب

4

الملخص

هذا البحث يعالج أدوات الاستفهام الواردة في سورة الأنعام، وسيقوم بحصرها، والوقوف عند كل أداة من أدوات الاستفهام: يوضح مدلولها، وأثرها في بناء تركيب الآية وقيمتها في السياق، مع الإشارة إلى القيم الجمالية التي يضفيها الاستفهام في نسق الآية الكريمة.

وقد ورد الاستفهام في السورة الكريمة في أربعٍ وثلاثين آية، موزعاً على ثلاثةٍ وأربعين تركيباً.

وسيجري تقسيم محاور هذا البحث انبثاقاً من طبيعة البنيتين: الحضورية والموضوعية للاستفهام في هذه السورة الكريمة، منطلقاً من استيعابي للدلالة التي يحملها، ومستفيداً مما قاله المفسرون الذين أولوا جزءاً من اهتمامهم بالجوانب السياقية والتركيبية والدلالية والبلاغية في القرآن الكريم، نحو: الزمخشري والمسعودي والرازي قديماً، والآلوسي وابن عاشور حديثاً.

Conclusion

The study investigates the interrogative marks in Surat Al- Ana'm(Al – Ana'm Sura). It lists the them and examine each one. It highlights their structural and contextual significance in Surat Al- Ana'm verses. Besides, it points out the aesthetic values that these marks add to the coherence and harmony of the verse. It is worth mentioning that The integrative marks occur thirty-three times in Surat Al- Ana'm distributed to forty-three structures.

To carry out the research, the study uses the objective structural theory. The choice is a result of full understanding of the its relativeness and significance, benefiting from what the interpreters of the Holy Quran said about the contextual, structural, symbolic and figurative sides of the Holy Quran such as Al-Zumakshery, Al Masua'dy and the Razy in the past, and Aal-Alusy and Ibn Ashoor recently.

مقدمة:

القرآن الكريم"بيِّنٌ واضحٌ ومحيطٌ بكل شيء من القضايا الحياة وحركتها من أوامر ونواهٍ، يُبَينُ للمؤمنين ما يسكِّن قلوبهم، وللمريدين ما يقوي رجاءَهم، وللمحسنين ما يهيّج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يثير لواعجَ أسرارهم. وهو: البيِّنُ إعجازه حتى لا يُعارض، والمبين الحق من الباطل حتى لا يشكلا، والمبين الحلال من الحرام حتى لا يشتبها[1]". وكما أنه لا تفنى عجائبه، فسيظل البحث القرآني كذلك لا تنقضي سبائبه، ولا تضيق بالدارسين مذاهبه، على رغم كثرة الدراسات والمؤلفات والأبحاث التي حررت في النص القرآني.

- **دافعي لكتابة هذا البحث وسبب اختياري إياه:** الإسهام في خدمة القرآن؛ فهو كلام الله الكريم: خدمته شرف، والنظر فيه عبادة، والكتابة فيه صدقة جارية.

لذا سأحاول ببضاعة مزجاة أن أمد إلى ذلك بسبب، فأعرِّج على أساليب الاستفهام في سورة الأنعام من غير مكث ولا عجل.

- **يهدف هذا البحث إلى الآتي:**

1- الماوردي البصري، أبو الحسن، النكت والعيون،5/3.

1. استكناه دلالات الاستفهام في سورة الأنعام.
2. الإشارة إلى أثر الاستفهام في ترابط التركيب في الآيات التي يرد فيها.
3. إيضاح وظيفة الاستفهام في استقامة السياق القرآني في المواطن التي يرد فيها.
4. بيان بعض الملامح الجمالية التي أضفاها الاستفهام على التعبير في صميم الآي الكريم؛ فالقرآن الكريم فضلاً عن كونه كتاب هداية وتشريع تشكل نصوصه قيمة أدبية لسانية مكتنزة بالفن مشعة بالجمال، يجد فيها من يبحث عن جمال الأسلوب بغيته، ومن يعشق رشاقة اللفظ طلبته، كيف لا وهو تنزيل من حكيم حميد"؟!!

وسينقسم هذا البحث إلى محورين:

المحور الأول: يقتصر على المواطن التي وردت فيها استفهامات مفردة في السورة الكريمة.

المحور الثاني: وينضوي تحته الآيات التي حوت أكثر من أداة استفهام.

منهجية البحث: المنهج الوصفي التحليلي هو الأنسب لطبيعة هذا الموضوع.

إجراءات البحث: سأنطلق في ثنايا المحورين السابقين من البنية الموضوعية التي يحملها الاستفهام، معتمداً صريح الدلالة التي يحملها، أو مما يغلب فيها ذلك، مستفيداً مما قاله المفسرون والبلاغيون الذين شرحوا المعاني والدلالات المتعلقة بالجوانب السياقية والتركيبية والدلالية والبلاغية في القرآن الكريم، نحو: الزمخشري والمسعودي والرازي قديماً، والآلوسي وابن عاشور حديثاً، وتمام حسان من المعاصرين، وذلك لاستكناه دلالات الاستفهام في سورة الأنعام، والإشارة إلى أثره في ترابط التركيب في الآيات، وإيضاح وظيفته في استقامة السياق القرآني في المواطن التي يرد فيها، وبيان بعض الملامح الجمالية التي أضفاها على التعبير القرآني في مواطن وروده.

وتحسن الإشارة في هذه المقدمة إلى أن الاستفهام في الموطن الواحد كثيراً ما تتنوع دلالاته وتتداخل، وأحياناً يأتي "متشابكاً لا يمنح معناه بسهولة، ولا يهب نفسه بيسر، بل تستنفد معانيه تفاسير عدة، وهو متمثل في كل تفسير"[1]، وقد واجه هذه القضية المفسرون والبلاغيون قديماً وحديثاً، إلّا أنه قد يكون للباحث رأي مستقل في بعض المواطن، ينبثق من غاية هذا البحث وزاوية الاهتمام المحصورة في

---

1. بحيري، سعيد حسن(1997م)، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات ،ص179.

البنيتين: (السياقية، والدلالية)، كل ذلك مع عدم غفلتنا عن قدسية النص القرآني، والوقوف فيه حيث يجب التوقف.

توطئة:

اقتضت مواقف الرفض والإعراض من المشركين أسلوب الحوار في القرآن الكريم؛ مما تطلب وجود الصيغة الاستفهامية التي تعني حصول صورة المراد فهمه في النفس، وإقامة هيئته في العقل، وهذا هو الذي قاله البلاغيون في تعريف الاستفهام فهو طلب حصول صورة الشيء في الذهن[1]. وهو- انطلاقاً من "صيغة الاستفعال (استفهم)-: طلب الفهم، لكن أساليب الاستعمال تجعل طلب الفهم أقل دلالات الصيغة خطراً في القرآن الكريم - وليس لهذه الدلالة وجود صريح في سورة الأنعام تقريباً- لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فهو منزه عن طلب الفهم - حقيقة- ومن ثم كان للاستفهام في القرآن الكريم - ومنه سورة الأنعام- وظائف أخرى غير ذلك[2]" من تلك أنه كان وسيلة لإقامة الحجة والإقناع من قبل الأنبياء ممتزجة بالنصيحة في كثير من الأحيان، ولكنها اتُّخذت من جانب الأقوام المشركين وسيلة للإنكار والتكذيب والتسفيه.

وسورة الأنعام المكية اقتضت طبيعتها المكية سيادة طابع الحجاج العقدي، وشيوع أدواته ووسائله، ومنها أسلوب الاستفهام؛ لذا ورد الاستفهام في هذه السورة الكريمة في أربع وثلاثين آية، موزعاً على ثلاث وأربعين تركيباً بدءاً، بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ..**﴾ في الآية (6) وانتهاء بقوله ﴿**قل أغير الله..**﴾ في الآية (164).

وكان ترتيب أدوات الاستفهام كالآتي: الهمزة تصدرت اثنين وعشرين تركيباً، و(مَنْ) ثمانية تراكيب، و(كيف) ثلاثة تراكيب، و(ما) ثلاثة أيضاً، و(هل)، و(أيْ)، و(أم) كلٌ منهن تصدرت تركيبين، و(أينَ) تركيباً واحداً، ويلحظ من هذا التوزيع تصدر الاستفهام بالهمزة أكثر من غيرها في السورة الكريمة؛ كونها أم الباب، وحرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره[3]. فالهمزة لا تعدل عن الاستفهام إلى

1. أبو موسى، محمد محمد أبو موسى(1408هـ ـ 1987م)، دلالات التراكيب دراسة بلاغية، ص204/203.
2. حسان، تمام(1420هـ ـ 2000م) البيان في روائع القرآن ،193/2.
3. الأنصاري، ابن هشام،(1985م)، مغني اللبيب،19/1. المرادي الحسن بن قاسم،(1413هـ ـ1992م) الجنى الداني ص97. والموصلي، ابن يعيش، شرح المفصل، 151/8.

باب آخر، ويمكن أن يسأل بها عن كل شيء في الجملة[1]. وهي بهذا تمتاز عن بقيَّة أخواتها من أدوات الاستفهام[2]؛لأن الأصل فيها أن يطلب بها التصديق أي: طلب إدراك المفرد، أو التصوُّر لطلب إدراك النسبة، بمعنى أنه يمكن إدراك المتصور عنه بإحدى الحواس الظاهرة من البصر والسمع والشم والذوق واللمس، وهذا ظاهر من قول السكاكي[3] في أنه يكفي أن يكون الجامع بين الجملتين الاتحاد المتصور بين أجزائهما.

ودلالات الاستفهام في سورة الأنعام ووظيفته تركزت وتمحورت حول سياق السورة العام، الموجه للرسول الخاتم(ﷺ)، الذي لم يخرج عن كونه تكليفاً بالتبليغ أو إنذاراً للمشركين أو إفحاماً لحججهم وإنكاراً عليهم، أو تبشيراً للمؤمنين، أو تسلية للرسول بإخباره أن ما يواجهه من الكفار قد حدث للرسل من قبله.

المحور الأول: الاستفهام المفرد

أولاً: النفي والإنكار:

طلب الفهم للإنكار أكثر ما يدل عليه الاستفهام في القرآن الكريم[4]، وفي هذه السورة الكريمة أيضاً احتل هذا النوع من الاستفهام المرتبة الأولى من حيث نسبة الحضور. وكثيراً ما يقترن النفي والإنكار في الدلالة التي يحملها الاستفهام؛ ولذلك دلالته في مفاصلة الكفار، وعدم إقرارهم على باطلهم، ونفي ادعاءاتهم، والآيات التي ورد فيها هذا النمط الاستفهامي هي:

(1)

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(14)﴾.

صُدِّرت هذي الآيةُ بهذا الاستفهام الماحي والمنكر لكل أنواع الشرك والولاء لغير الله. فهذه الآية تحمل رسالة خاصة، هي: إعلان التوحيد والتبرؤ من الشرك. وأئمة البلاغة مجمعون على أن هذا الاستفهام إنكاري، ينكر

1. ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، سيبويه، الكتاب99/1.
2. أبو موسى، محمد محمد، ص:216.
3. السكاكي يوسف بن أبي بكر(1407هـ - 1987م)، مفتاح العلوم، 253.
4. حسان، تمام(1420هـ- 2000م)، 194/2.

صاحب الرسالة فيه اتخاذ غير الله ولياً، سواء أكان هذا الولي مع الله، وهو الإشراك، أو من دون الله وهو الإلحاد. وهذه خلاصة ما قيل وما يقال في هذا الاستفهام وما كان على نهجه.

وثمة وقفة مع مدخول همزة الاستفهام في هذا التركيب:

(أاتخذ) فالاتخاذ مصدراً كان أم فعلا له مفعولان، أول وثان، فإذا قلت: مثلاً، اتخذت صالحاً أخاً؟، كان صالح المفعول الأول؛ لأنه ذات، وأخاً المفعول الثاني؛ لأنه صفة، ومن ذلك **﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾** {النساء125}.

ومفعولا (اتخذ) في الآية التي نحن بصددها (أغير الله أتخذ ولياً..) هما: (غير)، و(وليًا). و(غير) هو المفعول الأول. والترتيب النحوي في مثل هذا أن يقال: أأتخذ غيرَ الله ولياً؟. بتأخير المفعولين على الفعل، لكن في الآية قدم المفعول الأول (غيرَ الله) على الفعل. فكان من الأثر التركيبي لوجود الاستفهام في الآية الكريمة تقدم المفعول به الأول (غير)، ولو قدر السياق من غير استفهام لكان: لا أتخذ غير الله ولياً. فمع الاستفهام أصبح التقديم في الآية واجبا، ولعل سبب تقديمه ـــــ بلاغيا ـــــ أنه محط الإنكار؛ لأن المُنْكَر ليس هو اتخاذ الولي مطلقاً، بل المنكر هو اتخاذ غير الله وليًّا؛ وإلا لكان ولياً هو المفعول الأول، وغير هو المفعول الثاني، أي لكان الترتيب: لا أتخذ ولياً غير الله. ويشهد لذلك قول الشاعر[1]:

أكلَّ امرئٍ تحسبين امرءًا   ونار تتأجج بالليل ناراً

فالشاعر ينكر على المخاطبة أن تحسب كل امرئٍ كاملاً، تحقق ذلك من إفادة الإنكار الواقع على المفعول دون الفعل.

ومن الدلالات الخاصة التي يحملها الاستفهام في هذه الآية الكريمة: **﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾** تعاظم النكير والإنكار على من يشرك مع الله غيره وهو يقر له بالربوبية (فاطر السموات)، والألوهية(يُطْعِم ولا يُطْعَم).

وإسناد مدخول الاستفهام (أغير الله أتخذ) للمتكلم وهو النبي (ﷺ)، والمقصود به بدرجة أولى المخاطبون، فهم المشركون لا المتكلم، وفي هذا شيء من التلطف في الخطاب، ومحاولة كسر عناد المقصودين الأصليين بالخطاب.

1. الشاعر هو: أبو دؤاد حارثة بن الحجاج، والبيت من شواهد النحاة، ينظر: سيبويه، عمرو بن عثمان،الكتاب 66/1. وثمة من ينسبه لأبي النجم العجلي، ولأبي دؤاد الإيادي، ولعل الأول أصوب.

كما أن أسلوب الاستفهام هنا – زيادة في الحرص على الإقناع وإقامة الحجة- نوَّعَ بؤر التلقي: فثمة من يقادون عن طريق عقولهم وأفكارهم، فهؤلاء يشدهم التفكر في الصنع البديع لــ**(فاطر السماوات والأرض)**.

ومن البشر أشباه البهائم تقودهم بطونهم وغرائزهم، فهؤلاء أكثر انتباهاً إلى **(وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم)**؛ ولعل هذا هو سبب مجيء المفعول الثاني لمدخول الخطاب (ولياً) دون غيره نحو: (إلهاً، رباً..)، فكان مجيء (ولياً) هنا أنسب وأدق لتناسقه وسياق الخطاب.

(وهو يُطْعِم ولا يُطعَم) فـ(يُطْعِم) كناية عن غناء الله عن الشركاء وافتقار الخلق إليه.

و(ولا يُطْعَمْ) كناية عن انتفاء احتياجه إلى أحد كما أن فيهما توكيداً للإنكار أيضاً. ومما يحقق الربط والتماسك بين (يطعم، يطعم) الضمير فيهما العائد على الله عز وجل في محل الاستفهام كما أن العطف بين الجملتين: (وهو يُطْعِم)و(ولا يُطْعَم) جاء للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية والإنشائية، ومجيء الصفة الأولى ﴿فاطر السموات والأرض﴾ حقق تناسقا عجيبا بين الجملة المفردة الاسمية ﴿فاطر السموات والأرض﴾ والأخرى (وهو يطعم) جملة خبر المبتدأ التي فيها الفعل المضارع الدال على التجدد وقتاً بعد وقت؛ فاتسق النظم مع السياق ؛لأن الله خلق السموات والأرض مرة واحدة. أما الإطعام فهو يتجدد حينا بعد حين إلى أن تقوم الساعة. كما أن هناك التفاتة مهمة في حذف مفعول (يُطعم) وهي الإيجاز بالحذف والمراد حصول الإطعام من الله لا ممن يُطْعمه الله جل جلاله، وكل هذه توضيحات لمتعلقات الاستفهام.

(2)

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71)﴾

الفعل (قل) رسالة موجهة لإعلان التبرؤ من الشرك وتثبيت لتقرير أن الهدى الحق هو هدى الله؛ وذلك لمواجهة المشركين الذين يضغطون بقوة لارتداد المسلمين عن دينهم، ممن كانت لهم عليهم سلطة أو لهم بهم علاقة أو قرابة. فجاءت هذه الآية لتثبيت المؤمنين على إيمانهم، ولتيئيس المشركين من تحقيق

أهدافهم بمحاولاتهم فتنة المسلمين. فاستهلت الآية بهذا الاستفهام (أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا)؟ وهو استفهام إنكار للتوقع لا للواقع؛ لأن المسلمين كانوا يدعون الله لا غيره والمشركون كانوا يتوقعون منهم أن يدعوا غير الله.

فجاءت همزة الاستفهام في الآية الكريمة تحمل قوة الإنكار على الطامعين بارتداد المؤمنين، وبالتالي تيئيسهم من ذلك. كما أن مجيء الضمير الجمعي في مدخول الاستفهام (ندعو) قد أضفى قوة إضافية في شمول ذلك التيئيس، وأن الأمر يشمل المتكلم ومن ورائه، وهو إيذان أو دعوة للمخاطبين لتركهم – مستقبلاً– هذه المحاولات البائسة اليائسة؛ وأن المشركين لن يكتب لهم نجاح لصلابة ثبات المؤمنين على الإسلام.

(3)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74)﴾

هذي الآية مطلع مشهد من مشاهد مواجهة الرسل مع أقوامهم بهدف التسلية والتثبيت لمحمد (ﷺ).

أما الاستفهام (أتتخذ..)؟ فهو للإنكار.

نعم إن إبراهيم عليه السلام ينكر الواقع واقع أبيه وقومه لكثرة ضلالاتهم لما يعبدون من أصنام وليس صنماً واحداً، فلم يقل أتتخذون صنماً وإنما عبر بطريقة الجمع (أتتخذون أصناماً)؟ وقد علل استنكاره وتوبيخه لهم (إني أراك وقومك في ضلال مبين) بأنهم فيماهم فيه من عبادة في ضلال واضح مؤكدا إخباره لهم بــــ (إن) والجملة الاسمية بمواجهة قوية علهم يعودون إلى رشدهم.

ويبرز أثر الاستفهام واضحاً في عملية ترابط السياق والبناء التركيبي في الآية الكريمة التي تكونت من ثلاثة أجزاء: فكان الاستفهام الإنكاري القول ومقوله الذي هو الجزء الأول من الآية، والجزء الأخير منها تعليل للإنكار الذي حمله الاستفهام.

قول ----> مقوله(الاستفهام) -----> تعليل للاستفهام

(4)

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(101)﴾

(أنىَّ يكون له ولد) ؟ أي: كيف وبأي حال يكون لله ولد؟ ينكر عليهم زعمهم أن لله ولداً.

وقد أكد الإنكار بما هو ثابت من تنزيهه سبحانه عن اتخاذ الصاحبة (الزوجة) وما عُلِمَ عقلاً ولا نقلا من أن الولادة تحدث من غير (أم). وهذا الإنكار يقتضي نفي صحة زعمهم.

وتحليل المفسرين في العموم لهذا الاستفهام أنه للاستحالة من خلال ما شرحوه لنظم الجملة.

وجاءت المغايرة بين الفعلين (يكون) و(تكن) المرتبطين بالاستفهام لنفي ذلك الكون في جميع الأزمان؛ لأن (يكون) للحاضر والمستقبل، و(لم تكن) مضارعاً في اللفظ، ماضياً في المعنى. ولأن الثاني(الصاحبة/الزوجة) سبب في الأول (الولد)، فإذا انتفى السبب انتفى المسبب، ولم يقع الثاني (ولم تكن له صاحبة) في حيز الاستفهام الإنكاري؛ لأن المشركين لم يدّعوا له صاحبة. وقد جاء عطف (خلق كل شيءٍ)على (بديع) لما فيه من معنى الإيجاد، وهو عطف عام على خاص، لدفع توهم أن خَلْق ماعدا السموات والأرض ليس لله؛ لأن الكون كله وبما فيه من أجناس المخلوقات وأنواعها وأفرادها مندرج تحت مدلول هذه الجملة. ومجيء الاستفهام بين هذين المتعاطفين يكتنفانه من بين يديه ومن خلفه، وكأنهما تعليل لمدلوله، شاهد بوضوح على تناغم سياق الآية الكريمة وقوة ترابط بنائها المحكم النظم.

(5)

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114)﴾

هذا استفهام للإنكار عند العلماء، ويتضمن طيه النفي أيضاً، بمعنى: أيعقل أن أبتغي غير الله حكماً، وهو الذي أنزل.. لا لن أبتغي حكماً سوى الله. ولعل الاستفهام هنا يحتمل النفي باعتبارين: الأول أن الرسول الخاتم ﷺ ينفي عن نفسه ابتغاء حكم غير الله؛ لأنه لا يصح ولا ينبغي. والثاني: نفي أن يستحق ذلك أحد غير الله. وكأن المعنى والله أعلم: لا أبتغي غير الله حكماً، ولا أحد يستحق أن يُتخذ حكماً غير الله، وكيف يجوز ذلك أو يصح، وهو الذي أنزل الكتاب؟.

وقُدِّم على مدخول الاستفهام (غير) مفعول (ابتغي) على عامله؛ لأن الإنكار مسلط على مطلق الابتغاء، أو قل على ابتغاء مخصوص هو المتعلق بغير الله، لذلك جاء مباشرة بعد حرف الإنكار (همزة الاستفهام).

وأوثر ذكر (حَكَماً) على (حاكم)؛ لأن فيه خصوصيتين: خصوصية رسوخ الوصف في الموصوف ودوامه، والأخيرة العدل في الأحكام، وهو الوصف الخاص بالله تعالى؛ فإن الحاكم قد يجور، أما الحَكَم فلا يتصور منه الجور.

ومن الناحية البنائية مثّل الاستفهام مُفْتَتَح الآية التي ارتبطت به ارتباطاً عضوياً متسلسلا كارتباط الحكم بالدليل، أو المقدمة بالنتيجة.

(6)

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119)﴾

هذا التركيب الاستفهامي فيه إنكار على المخاطبين لانصرافهم عن الأكل مما ذكر اسم الله عليه، لكنه اتسم بتطرية وليونة في الخطاب، من شـــأنه أن يغزو النفوس ويدخل إلى طواياها في لطف ليمد لها إلى الطاعة والإذعان بسبب. وهو أعمق إبلاغاً وأرقى أداءً وألطف عبارة مما لو قيل: لماذا لم تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه؟ والخطاب مما يناسب المخاطب ويجعله أكثر تقبلاً له لليونة في الخطاب والرفق في التوجيه.

والاستفهام في الآية الكريمة يمكن أن يحمل إحدى دلالتين أو هما معاً: الاستفهام الحقيقي عن سبب امتناعهم عن الأكل، أو الإنكار عليهم لعدم أكلهم مما ذكر اسم الله عليه.

لكن دلالة الاستفهام في الآية الكريمة على النفي والإنكار أقوى؛ لأن فيه سؤالاً عن سبب الامتناع عن الأكل المذكور المترتب على السؤال نفسه وما يترتب عليه من جهالة المسؤول عنه من كناية عن الأكل وعدم الأكل .

ومن الناحية التركيبية السياقية: فقد ربط الاستفهام نصف الآية الأول ربطاً عضوياً واضحاً، وارتبط نصفها الثاني بالاستفهام ومدخوله وعلائقه ارتباطاً تعليلياً، وتذييلياً، فأصبحت الآية الكريمة متسقة البناء، منسجمة السياق.

(7)

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122)﴾

هذه الآية الكريمة قائمة على الثنائيات الضدية في ألفاظها ومدلولاتها، ابتداء من مدلول حرفها الأول َهَمْزَةُ الاسْتِفْهَامِ؛ فهي هنا مستعملة فِي نفي أو إِنْكَارِ تَمَاثُلِ حَالَتَيَ نقيض: الْأُولَى: حَالَةُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُشْرِكِينَ، وَالْحَالَةُ الثَّانِيَةُ: حَالَةُ الْمُشْرِكِ المستمر فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا، ومن الضديات التي نراها أو نستشفها من الآية الكريمة: (كفر/ إيمان، هدى/ ضلال، جهل/ علم، موت/ حياة، إماتة/ إحياء). واستعمال الأضداد من وسائل الإيضاح القوية بل إن الآية الكريمة تعقيب كاشف لأحوال المؤمنين والكافرين الذين تعرضت لهم سورة الأنعام كثيراً قبل هذي الآية.

وقد جاء الاستفهام فيها مترددا بين النفي والإنكار، أو جامعاً لهما، أما النفي فهو نفي المساواة بين فريقي الإيمان والكفر. قال أبو السعود: "والهمزة ـــ يعني في(أو من كان ميتاً)؟ ـــ للإنكار والنفي.."[1] .
وقال الآلوسي: "والهمزة للإنكار..."[2] .

وقال أبو حيان: "لا يستوي المؤمن الذي يبصر الصواب والحق ويعمل به والمشرك الذي لا يبصر وعزا هذا القول للما تريدي"[3] . ويقول ابن عاشور: "والهمزة لإنكار تماثل الحالين"[4] .

(8)

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(164)﴾

فـــالتركيب الاستفهامي﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ جملة مستأنفة مسوقة لتكون رداً على دعوة أولئك الكفار عند ما قالوا له: ارجع إلى ديننا وعبادة آلهتنا. فجاءت الهمزة للاستفهام المتضمن معنى النفي، أي: لا أطلب ربا غيره[5]، وقد يكون الاستفهام في ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ إنكار لبغية غيره تعالى ربا لا لبغية

1. أبو السعود: 180/3.
2. الآلوسي، محمود، روح المعاني: 18/8.
3. التوحيدي، أبو حيان، البحر المحيط: 214/4.
4. ابن عاشور، محمد الطاهر،التحرير والتنوير :43/8.
5. الدرويش، محيي الدين،(1422 هـ ـ2001م) ، 504/2.

الرب مطلقاً؛ ولهذا قدم المفعول، وليس التقديم للاختصاص إذ المقصود: لا أبغي غير الله ربا ولا أجعل له شريكا، وكيف أصنع ذلك وهو رب كل شيء؟!!.

وعلى تقدير الاختصاص لا يكون إشراكا للغير بل توحيد، وقال بعض المحققين: لا يبعد أن يقال التقديم للاختصاص[1].

قال سيد قطب عن الاستفهام في هذه الآية: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا..**﴾ "إنه الإيقاع الأخير في السياق الذي استهدف قضية الحاكمية والشريعة يجيء متناسقاً مع إيقاعات الاستفهامات الأُوَل في السورة، تلك التي استهدفت قضية العقيدة والإيمان من ذلك قوله تعالى":﴿قُلْ: أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[2].

ثانياً: الاستفهام للتقرير وما يتصل به:

بما أن السورة الكريمة مكية؛ فحتماً أنها تتضمن استفهامات يخاطب بها المكلفون، تحمل في ثناياها ما يقتضي تقرير المخاطب بأمر ما مباشرة، أو منطلقة من الإنكار إلى التقرير، أو من التعجب إلى التقرير، أو نحو ذلك. ومما تجدر الإشارة إليه أنه عندما ينسب التعجب إلى الله فإنما يقصد به التعجيب، أي أن الله جل في علاه يلفت الأنظار للتعجب من حال المعرضين أو الغافلين، وإلا فإن الله خالق كل شيء فلا يعجب من شيء من خلقه على سبيل الحقيقة[3] لأن التعجب الحقيقي ينطلق من الدهشة الناتجة عن حصول ما لا يُعلم أو ما يتوقع، وعلم الله كامل ومطلق وشامل. ومن أمثلة الاستفهام الذي يحمل التقرير وغيره قوله تعالى:

(1)

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ(6)﴾

فقدجاء هذا الاستفهام (ألم يروا..)؟ موضحاً مواقف الكافرين المكذبين بالحق المبين الواضح، بل إنهم جعلوا لله أنداداً؛ فأتى هذا الاستفهام يقررهم أنهم قد ساروا في الأرض، ورأوا مصارع الأقوام الذين من قبلهم كعاد وثمود وفرعون الذين أنعم الله عليهم فأنكروا نعمته، وعصوا رسل الله، فأنزل الله عقابه بهم

1ـ الآلوسي، محمود، روح المعاني 71/8.
2ـ قطب، سيد، (1412 هـ)في ظلال القرآن، 1241/3
3. حسان، تمام(1420هـ- 2000م)، 194/2.

جزاءً لأفعالهم وأعمالهم السيئة، ثم انطلق من هذا التقرير إلى التحذير والتهديد والوعيد. ويمكن أن تتمثل "قرينة الوعيد من الالتفات في(يروا)، و(قبلهم) إلى الخطاب في(لكم)؛ لأن الوعيد أقوى في حال الخطاب[1]". ويمكن أن تكون دلالة الاستفهام في الآية الكريمة بعد التقرير المذكور منصبة نحو الإنكار على الكفار، ليس إنكارهم عدم الرؤية كما ذهب ابن عاشور، بل الإنكار عليهم كيف أنهم لم يتعظوا بمصير من سبقهم الذين يمرون على أماكن مصارعهم، ثم هم يسيرون على سننهم المؤدي إلى ذات المصير، فيكون الإنكار حينئذٍ صارخاً، بالغ النكير والتشنيع عليهم لتقريرهم بتعطيل عقولهم وذهاب تفكيرهم عن الاستفادة من عواقب الهالكين.

إلا أن الاستفهام في هذه الآية يكتنفه كثير من الغموض عند الأئمة، فالزمخشري لم يذكر عنه شيئاً[2].

وصاحب روح المعاني أشار إليه إشارة عابرة بقوله: "وهمزة الإنكار لتقرير الرؤية"[3].

وأما أبو حيان والرازي فأهملاه[4]، والآلوسي قال موجزاً: "وقيل شروع في توبيخهم ببذل النصح لهم"[5].

أما صاحب التحرير والتنوير فقد جعل الاستفهام في (ألم يروا..)بياناً لجملة (فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا يستهزئون) إنكاريا [6]. بقوله: "..إنكار عدم الرؤية". وقد كان أبو السعود أكثر حيطة حين قال: "وهمزة الإنكار لتقرير الرؤية[7]".

وما دام أن المشركين رأوا وعلموا مصارع الأمم العاتية، وما أحله الله بها من تدمير عقاباً على كفرهم وتكذيبهم بالرسل من خلال أسفارهم ورحلاتهم والمرور على مصارعهم وآثار العقاب الذي حل بهم؛ فيغلب على الظن كون الاستفهام هنا يحمل دلالتي التقرير والإنكار، وكأنه يقول للمخاطبين: قد رأيتم وعرفتم ما حل بمن قبلكم على رغم كونهم أكثر منكم وأشد تمكيناً، فلِمَ لم تتعظوا بهم ؟، وتتجنبوا ما يوردكم مصيرهم، لكن الذي يظهر لنا من خلال السياق تقديم قرينة التقرير، وهو ما أفرده أبو السعود بالذكر، أما جانب الإنكار فلعل دلالته تبعية، ويظهر أن الإنكار عليهم هنا ليس على إنكارهم عدم الرؤية

1. السابق 203/2.
2. الزمخشري، جار الله، الكشاف 6/2.
3. الآلوسي، محمود، روح المعاني: 93/7.
4. التوحيدي، أبو حيان، البحر المحيط: 75/4، والرازي، فخر الدين، التفسير الكبير: 158/12.
5. الآلوسي، محمدو، روح المعاني: 94/7.
6. ابن عاشور، التحرير والتنوير 19/6.
7. تفسير أبي السعود 110/3.

كما ذهب ابن عاشور، بل الإنكار عليهم كيف أنهم لم يتعظوا بمصير الهالكين الذين يرون مصارعهم، ثم هم يمشون على سننهم المؤدي إلى ذات المصير، فيكون الإنكار حينئذٍ صارخاً، بالغ النكير والتشنيع عليهم بتعطيل عقولهم وذهاب تفكيرهم عن الاستفادة من عواقب الهالكين.

ولو تصورنا السياق هنا من غير استفهام لكان تركيبه: (أهلكنا قبلهم قروناً..)، فلما ورد الاستفهام كان له أثره في التركيب، وبالتالي أثره في المعنى الناتج عن هذا التركيب، فمن آثاره تكثير القرون الهالكة، ليتحقق بذلك مزيد من التخويف والاتعاظ. ومن آثار ذلك أيضاً مزيد من التحديد والإيضاح الناتجين عن استعمال حرفي الجر في: (من قبلهم من قرن).

وأما (كم أهلكنا) فقد أوردوا فيها احتمالين: أن تكون استفهامية وأن تكون خبرية والأقرب إلى السياق أنها خبرية، وعلى هذا يكون المعنى المتسق مع سياق الآية هو: قد علموا كثرة الأمم التي حل بها العذاب زجراً واعتباراً لغيرهم، وعقاباً لهم.

وهذا إنذار وتحذير مما حل بمن قبلهم فيكون مصيرهم هو ذلك المصير إذا تمادوا واستمروا على كفرهم ومعاندتهم لمحمد عليه الصلاة والسلام.

وأما دلالة الرؤية في مدخول الاستفهام (ألم يروا..) فيحتمل كونها علمية ؛لأن الأمم المشار إلى هلاكها من قبل مشركي العرب بأمد ليس بالقليل لكن لشدة وبشاعة ما حل بهم من عقاب أخذت الأجيال تتناقل أخبارهم جيلاً بعد جيل حتى عصر مبعث محمد (ﷺ)فجاء إطلاق الرؤية البصرية على العلم استعارة محسوس لمعقول، مما يعطي سرا بلاغيا في ذلك الحدث هو الإشارة إلى أن الذي حل بالأمم التي عتت صُوِّرَ لفظاعته وهوله حتى لكأنه يُرى بالعين الباصرة بعد آماد طويلة من حلوله.

وذلك بعد تمكينهم في الأرض آمادا مديدة كناية عن التثبيت فيها بإمداد (الممكن) بأسباب البقاء يقوي ذلك المعنى: الالتفات في (لكم) من الغيبة إلى الخطاب على مذهب من لا يشترط اتحاد الجهة في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب. بخلاف مذهب من يشترط ذلك فلا التفات لانفكاك الجهة، كون ضمير الغائب في (مكناهم) للأمم الماضية. وضمير المخاطب في (لكم) لمشركي العرب مما فوّت شرط الاتحاد في مرجع الضميرين.

(2)

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(30)﴾

تصور الآية كيف يقف المشركون حائرين في مشهد الوقوف أمام الله فيقسمون كذباً وزوراً أنهم لم يكونوا مشركين.

وفي ذلك الوقوف بين يدي الله، وبعد الاستفهام لهم بالسؤال (أليس هذا بالحق؟) لا يجدون مناصا لهم من الاعتراف بالحق، لكن ذلك الاعتراف المتمثل بالجواب عن الاستفهام يكون بعد فوات أوانه، وانعدام فائدته، بل يعقبه الخزي والحسرة.

وقد تعددت الآراء وأقوال العلماء في مدلول الاستفهام في هذه الآية: فالزمخشري يقول هذا الاستفهام : "تعيير من الله تعالى لهم على الكذب، وقولهم لما كانوا يسمعونه من حديث البعث والجزاء ما هو بحق"[1].

وخالفه أبو السعود قائلا بأنه: للتقريع والتوبيخ بدلا من التعيير الذي قال به الزمخشري[2]. ويجاريه الآلوسي فيقول: "والهمزة للتقريع على التكذيب"[3].

وكون الاستفهام للتقرير هو ظاهر نظرة الرازي الممتدة إلى العاقبة التقريرية قائلاً: "المقصود من هذه الآية أنه تعالى حكى عنهم في الآية الأولى(أي (الآية29). إنهم ينكرون القيامة والبعث، في الدنيا، ثم بيّن ـــــ في هذه الآية (30) ــــــ أنهم في الآخرة يقرون به، فيكون المعنى: أن حالهم في هذا الإنكار سيؤول إلى الإقرار[4]".

ويظهر لنا أن ابن عاشور قد أصاب كبد الحقيقة حين قال: " والاستفهام تقريري، دخل على نفي الأمر المقرر به، والمقصود: أهذا حق"؟[5].

1.الزمخشري، جار الله، الكشاف: 13/2.
2. تفسير أبي السعود: 124/4.
3. الآلوسي، محمود، روح المعاني: 131/7.
4.الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير: 196/14.
5.ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير: 188/7.

فلعل الأقوى أن الاستفهام تقريري وفق قولي الرازي وابن عاشور، وأما التعيير والتقريع والتوبيخ التي أشار إليها الآخرون فهي معانٍ متولدة عن المعنى الرئيس الذي هو الأصل: وهو التقرير، أي أن الله تعالى قرَّرهم أولاً بحقيقة البعث، فقد بعثهم للحياة بعد أن أماتهم، وهو الأمر الذي كانوا ينكرونه في الحياة الدنيا، فجاء الاستفهام في الآية الكريمة مقرراً لهم بما أنكروا، ومكذباً لهم في دعواهم الباطلة استحالة البعث والجزاء، وموبخاً لهم على مواقفهم المهينة لهم.

وأسلوب الاستفهام والعامل فيه: **(قال أليس هذا بالحق)** يمكن أن يكون استئنافا بيانياً جواباً عن سؤال سابق يثور في الذهن حاصله: ماذا قال لهم؟

والمسؤول عنه وهو (هذا) اسم إشارة لما يشاهدونه من جموع الناس للحساب بعد البعث من القبور، أو هو إشارة للبعث نفسه الذي كانوا يكذبون به في الدنيا؛ وحينئذٍ يجوز أن تكون دلالة الاستفهام شاملة للتقرير، وللتوبيخ والتقريع معاً، وهي مجمل الأقوال في مدلول الاستفهام الواردة عن العلماء: (الزمخشري وأبي السعود والرازي والآلوسي، وابن عاشور، وغيرهم). وأظن أن هذا هو الأرجح بدلالة ما بعد جوابهم، وهو قوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ فهذا الجزاء، بهذه الصيغة القوية التهكمية لا تنسجم مع التقرير وحده، بل للتقرير مع التوبيخ والتقريع أيضاً لإيضاح المعنى وتقويته.

ويلحظ أن البناء التركيبي في هذه الآية بين المخاطَب والمخاطِب قائم على الاستفهام، وأن المعنى غير متسق أو مستقيم بغيره، فبوجود الاستفهام في هذه الآية صار التركيب قائما على التكثيف المركز، والترابط الوثيق، من غير انفصال أو فواصل:

﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ---> قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ---> قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا---> قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ فلا يمكن أن يقوم التركيب في هذا السياق بغير الاستفهام، ولا يصح تصور ذلك.

(3)

ومما يحتمل التقرير ودلالات أخر أيضاً قوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63)﴾

أكثر المفسرين على أن الاستفهام في (قل من ينجيكم)؟ يحمل التقرير[1]. إلَّا أن أبا حيان أضاف إلى التقرير معاني إضافية حيث قال: "وهو استفهام يراد به التقرير والإنكار والتوبيخ، والتوقيف على سوء معتقدهم"[2]. وهذا الفهم من أبي حيان يتسق وسياق الاستفهام؛ لأن المراد أن يقررهم الله بأنه وحده هو المنجي من الملمات والشدائد، والإنكار على المشركين أن يقصدوا الإنجاء من الأصنام، ثم توبيخهم على سلوكهم المنحرف: فالله وحده هو من ينجيهم، وهم يشركون معه غيره، ففيه توقيفهم على ضلال اعتقاداتهم بالاعتماد على أصنامهم التي لا تملك ضراً ولا نفعاً.

ويبرز أثر الاستفهام في التركيب هنا بقوة وجلاء، على نحو يقل في غيره من المواطن.. فاسم الاستفهام (مَنْ) – المقصود به الخالق جل وعلا- هو محور الحديث، وصاحب القصة والشأن الذي تدور حوله الآية الكريمة، وما بعدها أيضاً، وترتبط به أحداثها، وتعود إليه جل ضمائرها: (قل من ينجيكم؟..، تدعونه، لئن أنجانا، قل هو القادر، يبعث عليكم، يلبسكم، يذيق..). وفي هذا من قوة ترابط البناء وتماسكه ما لا يخفى لذي لبٍ.

(4)

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)﴾

الأغلب أن القائلين (ما أنزل الله على بشر من شيءٍ) هم مشركو العرب واليهود معاً لوجود إيحاء بأوصاف الفريقين.

---

1. ينظر: تفسير أبي السعود، 145/3، والآلوسي، محمود، روح المعاني، 179/7.
2. التوحيدي، أبو حيان، البحر المحيط: 149/4، وينظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 280/7.

وقد جاء الاستفهام ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس؟﴾ لتقرير ما أنكره قائلو(ما أنزل الله على بشر من شيءٍ) ولإبطال مزاعمهم التي تفوهوا بها ويحتمل أنه لإفهامهم.

و(قل الله...) هذا جواب الاستفهام المجازي التقريري: (قل من أنزل الكتاب)؟ والأصل أن لا يذكر له جواب، لكنه ذكر هنا؛ لأن الخيال ليس له مجال في تصوره كونه من حقائق الإيمان.

ومن الناحية البنائية التركيبية، حل الاستفهام موضعاً وسطاً، كان فيه مقرراً لنفي ما سبق إنكاره بصورة فيها شيء من التفصيل، وأعقب الاستفهام الإجابة عنه، كل ذلك أعطى البناء ترابطاً محكماً.

(5)

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ(130)﴾.

يوقف الله تعالى مجرمي الجن والإنس يوم العرض في اليوم الأخروي في مشهد فيه إذلال لهم، فيسألهم ربهم سؤال تقرير وتوبيخ: ألم تأتكم رسلي في الدنيا وتبلغكم رسالاتي، وتنذركم لقائي في هذا اليوم الشديد؟ قال الزمخشري فيه: "الهمزة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريراً لهم"[1].

فالهمزة في الأصل للنفي، لكنها دخلت على نفي (لم) فنفت ذلك النفي، ويفهم من كلام أبي السعود ـــ وإن كان غير واضح ـــ أن الاستفهام للتقريع والتوبيخ الناشئين عن التقرير[2].

أما أبو حيان فقد أوجز ذلك بقوله: "إن الاستفهام في (ألم يأتكم) تقريري"[3].

وعلى هذا فالمعنى الأصل للاستفهام هنا هو التقرير، وهو واضح إذ المعنى المراد والله أعلم: (يا معشر الجن والإنس قد جاءتكم رسل..) بيد أن هذا الأصل تبعته معانٍ أخر، هي: (التقريع، والتوبيخ، والتحسير) لأنهم لم ينتفعوا من إرسال الرسل.

---

1. الزمخشري، جار الله، الكشاف :51/2.
2. تفسير أبي السعود ،18/3.
3. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير: 74/8.

ثالثاً: الاستفهام توبيخاً وتبكيتاً:

ثمة مواطن يغلب فيها حمل الاستفهام على التوبيخ والتبكيت واللوم للمخاطبين، وذلك يكون غالباً "على فعل وقع، وكان الأولى ألا يقع، أو على ترك فعل ما كان ينبغي أن يترك،..ففيه تحقير للعقول وتحقير للشيء الموبخ فيه، وهذا ينزل من قيمته ويجعله محل نقد ومراجعة[1]" من ذلك ،قوله تعالى :

(1)

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)﴾

يتجلى المشهد في الآيات الثلاث بتجميع المشركين في صعيد واحد أذلاء مقهورين مشدوهين صاغرين ثم يوجه لهم العلي القدير هذا الاستفهام المرعب المفحم من قبل الله: (أين شركاؤكم..) "الأصنام" الذين كنتم في الحياة الدنيا تعبدونهم وتتذللون لهم من دون الله، وتعتقدون أنهم كانوا آلهة تجلب النفع والضر؟ وهناك في ذلك الموقف العصيب لا يجدون جواباً ومما يدل على ذلك العطف بــ(ثم) إشارة إلى أن المشركين تحيروا في أمر الإجابة فدفعتهم حيرتهم إلى تعمد الكذب عندما ضاقت عليهم السبل، وفي تأكيد الإخبار بالقسم دليل على شعورهم الداخلي والنفسي بأن كذبهم مفضوح كما أنه دليل على أن جهلهم بمعرفة الله في الدنيا قادهم إلى إعلان الكذب عليه في الآخرة بإجابتهم كاذبين ﴿والله ربنا ماكنا مشركين﴾ محاولين الغش والتدليس ــــ كما هي عادتهم في الحياة الدنيا ــــ لكن ذلك اليوم لا مجال فيه لمغالطاتهم. وقد تقاربت أقوال الأئمة في مدلول الاستفهام الأول (أين شركاؤكم)، وأنه للتوبيخ أو التقريع أو التبكيت، وهي معانٍ متحدة أو جدُّ متقاربة، قال الزمخشري:" وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ [2]".

1. المساري، بشير عبد الله(جمادى الأولى 1432هـ)، لغة الخطاب الدعوي، ص172.
2. الزمخشري، جار الله، الكشاف، 10/2.

وماثله أبو السعود قال: "أي نقول لهم خاصة للتوبيخ والتقريع على رؤوس الأشهاد: "أين شركاؤكم[1]".وكذلك صاحب روح المعاني قال "إن المراد منه التوبيخ[2]" والرازي يقول بأن: المقصود منه التقريع والتبكيت[3]. وأما أبو حيان فيقول: "سؤال توبيخ وتقريع"[4].

وابن عاشور يقول: "والاستفهام توبيخي عما كان المشركون يزعمون"[5].

ويظهر أن الإجماع على أن الاستفهام للتوبيخ إلَّا أن خلاصة الأقوال التي ذكرت يستنبط منها أن هناك معنى رئيساً في هذا الاستفهام هو التكذيب للمشركين في ادعائِهم الشركاء فجاء التوبيخ لهم مترتب على تكذيبهم.

وجاء قوله تعالى: (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) لإطلاق النظر على التأمل الذهني لإظهار كذبهم لفظاعته حتى لكأنه يرى رؤية عين بطريقة التعجب من خلال فعل الأمر (انظر).

فضلاً عما سبق ذكره من أهمية الاستفهام في مدلول الآيات الثلاث، وما تحمله من رسالة للمعنيين، فإن الاستفهام ليس مؤثراً في البناء التركيبي فحسب، بل هو المحور التركيبي الذي ينتظم فيه وبه سياق هذي الآيات، ويصعب تصور اكتمال معنى السياق من غير ورود الاستفهام فيه.

فالآية الأولى حملت الاستفهام، والآية الثانية بني استيعاب جواب الاستفهام عليها، والآية الثالثة فيها توجيه ولفت نظر إلى كيفية كذبهم في جوابهم، حتى على أنفسهم. وعليه فقد استغرق أسلوب الاستفهام بناء التركيب كله.

والآيات الثلاث من ناحية فنية يمثلن لوحة تصورية لنقل مشهد مأساوي من المشاهد التي يمر بها المشركون يوم القيامة تم عرضه عرضاً دقيقاً ومحكماً بأسلوب الاستفهام؛ لأخذ العبرة من ناحية، ومن ناحية أخرى لإنذار وتحذير المشركين من شر وسوء مصير من يشرك بالله.

رابعاً : استفهامات أُحادية الدلالة:

ثمة نماذج قليلة يغلب فيها على الاستفهام حمله دلالة واحدة واضحة، من ذلك:

---

1. الآلوسي، محمود، روح المعاني: 124/7.
2. تفسير أبي السعود: 119/4.
3. الزمخشري، جار الله، التفسير الكبير: 181/12.
4. التوحيدي، أبو حيان، البحر المحيط: 95/4.
5. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير: 175/7.

أ. **النفي:** في قوله تعالى:

- **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)﴾**

الاستفهام في هذه الآية الكريمة (ومن أظلم) وما شاكلها مسوق للنفي؛ والغاية منه والمقصود تعظيم وتهويل بشاعة ما يرد بعده.

الاستفهام هنا جاء معقباً على مواقف الجهل والعناد وحاصر لمظاهر الكفر في أمرين:

أولهما: افتراء الكذب على الله. وآخرهما: التكذيب بآيات الله.

وصُدِّرت بالاستفهام بـــ (من أظلم) أي لا أحد أظلم منه ومعلوم أن كل استفهام جاء على هذا النمط (من أظلم) أنه للنفي غير أن في هذا "الأسلوب" شيء من الإشكال، ذلك أن أفعل التفضيل يفيد مشاركة طرفين أو عدة أطراف في صفة وأن أحدهما زاد في تلك الصفة على الطرف الأول (المفضّل عليه)، وهذا الإشكال وقف عنده بعض المفسرين واللغويين والبلاغيين فيما يتعلق بهذه الآية وأمثالها، غير أن هذه الآية هنا نص قاطع على نفي الزيادة في الظلم، فلم تتأثر دلالة الاستفهام بهذا الإشكال.

– ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)﴾

النفي الذي حمله الاستفهام هنا جاء لتبشيع الأشياء التي وردت بعده، وهي: افتراؤهم على الله الكذب، وقولهم إنهم يوحى إليهم، وقولهم إنهم سينزلون مثل ما أنزل الله، أعقب ذلك بيان عاقبة ذلك وعقوبته؛ ولأن تلك الأمور الثلاثة المرتبطة بالاستفهام كان أسلوبها القول، ودافعها الكبر، ذُيلت الآية بقوله تعالى: **﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾** وهذا يوحي بمقدار الترابط التركيبي المتماسك الذي أضفاه الاستفهام في الآية الكريمة.

ب. **التشكيك:**

وذلك في قوله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109)﴾

تعرض علينا الآية الكريمة زعماً لأناس يقسمون أغلظ الأيمان وأوكدها استعدادهم للإيمان إذا جاءتهم آية؛ ولأن هذا الزعم جاء مغلظاً ومؤكداً بأسلوب ظاهره يتنافى مع أدنى شك بصدقهم، لم تواجههم الآية بتكذيبهم الصريح في دعواهم، بل أعادت الأمر إلى صاحب الأمر، لكن خطاب التشكيك بصحة تلك الأيمان وصدق ذلك الزعم على صيغة سؤال وجه لطائفة أخرى - يظهر أنها حريصة على إيمان هؤلاء- قائلاً لهم: وما يدريكم أنهم سيؤمنون حقيقة إذا جاءتهم الآية؟

ويظهر أن الاستفهام هنا ورد للتشكيك بصحة تلك الدعوى، التي قد ينخدع بها قصار النظر، وكأنه يقول: هل تصدقون تلك العهود والأيمان؟ فلا تخدعنَّكم فكثيراً ما يكذب أصحابها.

وقد جاء الاستفهام في نهاية الآية الكريمة كتذييل وربط لآخر الآية بأولها ربطاً وثيقاً.

خامساً: استفهامات متنَازَعات الدلالة

ثمة أدوات استفهامية في السورة الكريمة لا تحمل دلالة واحدة راجحة، ولم يتفق المفسرون والبلاغيون على دلالات محددة تحملها، بل تظل الدلالة المستفادة من الاستفهام متنازعة، مختلف فيها على نحو أكبر من سابقاتها، من ذلك:

(1)

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12)﴾

الآية الأولى هنا تدعو إلى الالتفات إلى الماضي، والتفكير بجدية وروية وعمق في أحداثه التي تُقدِّم للمخاطبين العظة والموعظة مما جرى لأسلافهم عقوبة لعصيانهم ومخالفاتهم لله.

والآية الثانية تفتح أمام القارئ صفحة الكون الحاضر ليقرأها بوعي لاستقصاء حقيقة خضوع الوجود كله لله- عُلويه وسفليه وما بينهما.

واللافت في الآيتين الكريمتين أن كليهما بدأتا بـــ(قل) خطاباً لصاحب الرسالة العظمى (ﷺ)•ليبلغ كل عاقل لتجتلي له حقائق الإيمان.

و تصدُّر فعل الأمر (قل) للآيتين لما للمقول من أهمية، ولطلب سرعة تبليغه ومواجهة المخاطبين به سواء أكان إنذاراً أم تبشيراً؛ لأنه بمثابة رسالة خاصة تستوجب سرعة التوصيل والبلاغ. كما أن الآيتين الكريمتين كلتيهما صدرتا بأسلوبين إنشائيين طلبيين متتابعين، شكَّل الاستفهام ثانيهما في الآية الثانية.

ولو تخيلنا سياق الآية الثانية من غير استفهام، لكان تركيبها: (..لله من في السماوات والأرض..) فكان للاستفهام دوره في هذا البناء التركيبي الذي جاءت عليه الآية الكريمة. ومن أثر وجود الاستفهام تأكيد تقرير الملكية لله، ولعل من آثاره استدعاء المخاطبين بالاستفهام لإزاحة غشاوة الغفلة عن أعينهم، وكشط الران الثقيل عن عقولهم، ليعودوا للجادة، ويضعوا الأمور في نصابها، ويقروا لله وحده بالخلق والأمر. يقول سيد قطب"إنه موقف المواجهة للبيان والتقرير، ثم المفاصلة..بمواجهتهم بالسؤال عن الملكية"[1]

والاسم (كيف) في الآية الأولى ليس استفهاماً محضاً، وإنما هو للدلالة على حال وكيفية عقاب الله للأمم الغابرة نتيجة لتكذيبها لرسل الله. ومجموع التركيب ﴿..انظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يفيد التعجب مما حدث لأولئك الأقوام المهلكة، والتعريض بمشركي العرب لمشابهة الحالتين ببعضهما، يلفت إلى ذلك بقوة تقديم الخبر(لمن)وتأخير المبتدأ (ما) في التركيب. أما قوله تعالى: ﴿لمن ما في السماوات والأرض﴾ فالمستفهم لا يطلب به تحصيل علم لم يكن يعلمه، ولهذا فهو استفهام مجازي، مسوق لما مر من أمور، منها تبكيت الكفار وتوبيخهم على ما بدر منهم من تخلف في الكفر وعجز عن التأمل والاستبصار[2].

ومن صور التردد والتنازع في دلالة الاستفهام هنا فضلاً عما ذكر: قال الزمخشري : "سؤال تبكيت، وقُلْ لِلَّهِ تقرير لهم[3]، وابن عاشور نص على أنه تقريري صراحة فقال: "فإن هذا الاستدلال تضمن استفهاماً تقريرياً، مما يعني توقيف المشركين على ما يعلم ثبوته أو نفيه، من أن الاستفهام مستعمل مجازاً في التقرير، كونه من مقتضيات التكرير بيد أن المراد به هنا لازم معناه وهو تبكيت المشركين وإلجاؤهم

1. قطب ، سيد في ظلال القرآن 1048/2

2.الدرويش ، محيي الدين إعراب القرآن وبيانه 336/2

3. الزمخشري، جار الله، الكشاف 8/2.

إلى الإقرار بما يفضي إلى معتقدهم الشركي، فهو مستعمل في معناه الصريح ولكن المقصود هو المعنى الكنائي[1].

والذي أراه هنا: أن الاستفهام في هذه الآية الكريمة متردد الدلالة غير محصورها ولا مستقرها، فليس للتبكيت المحض كما ذهب إليه الزمخشري وابن عاشور، ولا للتعجب الحصري كما قال غيرهما، وإن كان يغلب على ظننا كونه للتقرير، تقرير المخاطبين بملكية الله لما في السموات والأرض، حتى ولولم يذكر الجواب الذي بعده: (قل لله) فقد دل على التقرير؛ لأن المسؤول عنه قامت الدلائل النقلية والعقلية على أنه سبحانه وحده المالك. و(قل لله) تأكيد لذلك التقرير، ولعل فيه أيضاً توجيهاً وإرشاداً إلى الجواب الذي كان يتعين على المسئوولين ذكره، والجواب به على الاستفهام، والله أعلم.

(2)

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148)﴾

لما بلغ المشركون ذروة الجهل والحماقة في الشرك ساروا في خط الدفاع عن أنفسهم وعن آبائهم، مع استمرارهم بسيرهم في كفرهم وغيهم بغير حياء ولا خجل مدعين بأنهم أبرياء كونهم ينفذون مشيئة الله تعالى قائلين: لو شاء الله ما أشركنا به الأصنام، ولو شاء الله ما حرمنا أكل لحوم الأنعام، ولو شاء الله ما أشرك آباؤنا من قبلنا، ولو شاء الله ما حرَّموا من دونه من شيء.

وقد كانت مخالفات من سبقوهم السبب في إحلال العذاب بهم، وأدعى لمشركي العرب أن يفيقوا من غفلتهم ويتركوا العناد. فوجه الله هذا السؤال المحير لهم والمفحم؛ لأنه يطالبهم بإيجاد دليل على صحة ادعائهم: **﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾** فإن كان معكم دليلٌ فأظهروه.

وقد اختلفت الأقوال في تقدير معنى هذا الاستفهام، وترددت:

1. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير 150/7.

يقول الزمخشري: "..من علم": من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم (فتخرجوه لنا): وهذا من آلهتكم والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة[1].

وأما الآلوسي فجعله للتوبيخ فقال: "إنما استوجبوا التوبيخ على قولهم ذلك؛ لأنهم كانوا يهزؤون بالدين"[2].

وعند أبي حيان أنه استفهام على معنى التهكم بهم، وكذلك النفي، أي ليس عندكم من علم تحتجون به فتظهروه لنا[3].

وقال محمد رشيد رضا والاستفهام هنا للتعيير والتوبيخ[4].

وأما ابن عاشور فيرى أن الاستفهام للإفحام والتهكم[5]. والله أعلم أي ذلك هو المقصود.

ويظهر أثر الاستفهام في ترابط السياق وانسجام البنية التركيبية في كونه ربط أجزاء الكلام قبله وبعده على نحو بديع: فكان رداً غير مباشر على المزاعم المتقدمة، وكان مقدمة للنتيجة التي لحقته.

ومن بديع النظم القرآني في هذه الآية الكريمة أن مزاعم السابقين اعتمدت الإنشاء غير الطلبي(لو شاء..)، وكذلك الأحكام التي أصدرها الله عليهم بعد الاستفهام(إن تتبعون..)، في حين كان الرابط بين كلٍ إنشاء طلبي هو هذا الاستفهام.

المحور الثاني: مواطن متعددة الاستفهام

ثمة مواطن في هذه السورة الكريمة ورد فيها أكثر من أداة استفهام؛ ولذلك – من دون ريب – مزية خاصة، ودلالة متميزة، وأهمية في الموضوع والقصدية أو الرسالة التي يحملها النص في هذه المواطن.

وحيث تتعدد الاستفهامات يتوقع أن تتعدد بنيتها الموضوعية التي تصاغ فيها ولها، لكنها قد تتقارب أو تتحد في طبيعة الرسالة التي تحملها، من ذلك:

أولاً: الاستفهامات للإنكار وما يتصل به

1- مما تردد بين التقرير والإنكار والإنذار قوله تعالى:

1. الزمخشري: جار الله، الكشاف 59/2.
2. الألوسي: محمود، التحرير والتنوير 51/8.
3. التوحيدي، أبو حيان، البحر المحيط، 241/4.
4. القلموني، محمد رشيد، 156/8.
5. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 149/8.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(19)﴾

في هذه الآية استفهامان أولهما: (أي شيءٍ أكبر شهادة)؟ في مبتدأ الآية وثانيهما في منتصفها ﴿أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى﴾؟

والاستفهام الأول للتقرير، أي أن الله أمر رسوله ﷺأن يسألهم هذا السؤال ليقررهم بأن الله أكبر شهادة، يدل على ذلك تعيين الجواب ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾. ويلحظ أن الاستفهام والجواب اقترنا بفعل الأمر(قل)، وإذا كان النحاة قد ربطوا بين الاستفهام والأمر والجزاء[1]، فمن خلال مثل هذا السياق القرآني انطلقوا في استقرائهم ذلك.

أما الاستفهام الآخر فقد جعله الزمخشري للتقرير والإنكار والاستبعاد، وتابعه مَنْ بَعْدَهُ لا سيما أبو السعود[2].

فالاستفهام الأول (أي شيءٍ أكبر شهادة) لا خلاف بين البلاغيين بأنه للتقرير، وأما الآخر ﴿أإنكم لتشهدون...﴾ ؟ فمنهم من قال بأنه للإنكار، وقوله صحيح. ومنهم من قال إنه للتقرير والإنكار والاستبعاد فقوله أيضا صحيح، ولا غرو في الجمع بين التقرير والإنكار في موضع واحد؛ لأن ذلك منظور فيه إلى اختلاف العبارات.

فمن نظر إلى الواقع الذي عليه المخاطبون من اتخاذهم مع الله آلهة أخرى، تتمثل في أصنامهم ومعبوداتهم (آلهتهم) ذهب إلى أن: الاستفهام للتقرير، أي لتقريرهم واعترافهم بعقيدتهم الخاطئة ليكون اعترافهم بها توطئة لإنكار اعتقادهم الباطل. ومن نظر إلى مآل الاستفهام قال بالإنكار وضرب صفحاً عن القول بالتقرير؛ لأن هذا التقرير لم يُقْصَدْ لذاته بل ليتوصل به إلى الإنكار الذي هو المراد الأساس في الخطاب الاستفهامي. وعلى كلٍ فكلا النظرين صحيح، بيد أن الإنكار أشمل من الاستبعاد فلا داعي للقول به كون الإنكار أشد منه.

1. العمايرة، خليل أحمد(1407هـ - 1987م)، في التحليل اللغوي، ص107.
2. ينظر: الزمخشري جار الله، الكشاف، 10/2، العمادي، أبي السعود،، 117/3، الآلوسي، محمود، روح المعاني، 119/7، الرازي، التفسير الكبير،179/12، ابن عاشور محمد الطاهر، 169/7.

وعوداً من جديد على الفعل (قل) فهو للتنبيه بأن القول المحكي به له أهمية كبيرة أو أنه رسالة خاصة يجب تبليغها على الفور من تلقيها ومجابهة المقول له بها، والاستفهام في الموطنين هو متكأ القول ومقوله، وهو المقصود به.

والاستفهام الأول: ﴿أي شيءٍ أكبر شهادة﴾ هو بمثابة جرَس إنذار إن صح التعبير وقرع بالعصا لتنبيه الغافلين، ولفت أذهانهم إلى ما يخاطبون به، ولخُلُوْ أذهانهم من الانشغال. وهو خطاب، موجز لتهيئة المشاعر وتشويق النفوس إلى ماذا تكون عقبى الكلام. والاستفهام ـــ هنا ـــ مجازي، والأصل فيه ألَّا يذكر له جواب، ويفترض أن يوكل الجواب فيه إلى أذهان المخاطبين لتذهب في تصور إجابته كل مذهب، لكن لما كان الخيال ليس له مجال في تصور الإجابة وتصويرها جاءت الإجابة (قل الله) جواباً للاستفهام: (أي شيءٍ أكبر شهادة).

وهذي الآية اُقْتُصِرَ فيها على الإنذار لمطابقة مقتضى الحال كون الخطاب للمشركين بالله المكذبين برسوله، فهم ينذرون لما هم فيه من الضلال دون تبشير لعدم استحقاقهم لذلك.

و(أإنكم..)أكدت على الفعل المضارع (تشهدون) الدال على التجدد وفي هذا التوكيد نعي عليهم بالسفه وخطل الرأي، ثم جاء الاستفهام الداخل ب(الهمزة) أم الباب الحاملة لمعنى الإنكار لينسف كل ما امتلأت به عقولهم ـــ الفارغة ـــ من أوهام وشركيات وضلالات.

والآية الكريمة على قصرها حُشِدِ فيها سبعة أساليب إنشائية ملفوظة فضلاً عن الملحوظة، شكّل الاستفهامان فيها محوري أساس قامت عليهما بقية الأساليب الإنشائية. ولو قارنا بين طبيعة البناء في أسلوبي الاستفهام لتبدت أمور كثيرة، من ذلك:

- أن الاستفهام الأول جاء أسلوبه ابتدائياً خالياً من التوكيد، مما يجعلنا نتساءل هل جاء كذلك لأن أذهان المخاطبين خالية من الموانع والصوارف؟ أم لأن الأمر المستفهم عنه أقل أهمية من الأمر المستفهم عنه في الأسلوب الثاني الذي جاء مؤكداً بأكثر من أداة: (إنَّ، واللام المزحلقة، وإنَّ)؟ ولعل للغاية من كلا الاستفهامين أثرهما في ذلك: فالأول للتقرير، والثاني للإنكار.

– الأسلوب الأول اعتمد على أداة الاستفهام (أي) وهي لطلب تعيين أحد المشتركين في الحكم الذي أضيف إليه الاستفهام. وقد أُردف بجواب بسيطٍ واضحٍ موجزٍ، من غير فاصلٍ، وكأنها تعفي المسؤولين عن الجواب، أو تتهم عقولهم بالقصور عن إدراك ذلك، أو عكساً من ذلك أي لكونه أمراً مقرراً بداهةً.

– الاستفهام الثاني اعتمد على الهمزة، وهي أساس أدواته وأمها، ولم يذكر بعدها الجواب صريحاً، لكنا من خلال طبيعة الصياغة نلحظ أن الجواب بـــ(نعم)، لذلك حمل الاستفهام دلالة النكير عليهم، وكان أن أُردف الاستفهام بسيل من الإثباتات الضدية لموقفهم: أي إذا قالوا نعم إنهم يشهدون أن مع الله آلهة أخرى، فقل لهم لكني لا أشهد أن مع الله آلهة أخرى، وقل لهم إنما الله إله واحد، وقل لهم إنني بريء مما تشركون، ومن المشركين الذين أنتم منهم، إنها المفاصلة التي أعقبت التقرير والإنكار.

ولو تخيلنا التراكيب خلت من أداتي الاستفهام، لما توفرت كل هذه الدلالات وغيرها، ولم يعد أن يكون الكلام: (الله أكبر شيء شهادة. وأنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى). فانظر كم هو الفارق كبير بين تراكيب الآية الكريمة المدهشة المبنية على الاستفهامين، وبين هذين التعبيرين الغفلين؟

كما أن (قل لا أشهد، وقل إنما هو إله واحد) صُدِّرت فيه الجملتان بالفعل (قل)مع أن كلاً منهما تمثل موضوعاً مستقلاً. وأن ما بعد الفعل (قل) هو رسالة خاصة لها أهمية بالغة، تستلزم المبادرة بتبليغها والمواجهة بها، بقرينة عدم وجود العطف بين الجملتين (قل ـــــ قل) رغم الداعي لوجود العطف؛ لأن الجملتين إنشائيتان لفظاً ومعنى. فبينهما التوسط بين الكمالين ...

ولو وجد العطف بالواو لاتحد المسند (قل) والمسند إليه، الضمير المستتر وجوباً في الفعلين.

وقد جمع بين (لا أشهد) و (إنما هو إله واحد) تقرير عقيدة التوحيد لله ففي الجانب السلبي (لا أشهد) وفي الجانب الإيجابي (إنما هو إله واحد) فجاءت الجملة الأخيرة لقصر صفة الألوهية على موصوف (واحد) هو الله قصراً حقيقياً تحقيقياً. ثم ذيَّل ذلك بتقرير لمضمون الكلام السابق الذي يدور المعنى عليه مدعوماً بتأكيد الخبر (أنَّ) واسمية الجملة الدالة على الثبات لمواجهة تعدد الشركيات عند المشركين (وإنني برئ مما تشركون) مرسخاً البراءة من الشرك وأهله بصورة دائمة لا انقطاع فيها بالصفة المشبهة (برئ) بدلا من اسم الفاعل (بارئ).

2- ومما يحمل النفي والإنكار:

أ. قوله تعالى:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ(50)﴾.

جاء في هذه الآية استفهامان، أولهما: ﴿**هل يستوي الأعمى والبصير؟**﴾ وغرضه النفي فمنزلة الأعمى سواء أكان عمى جهل وبصيرة، أم عمى بصر منزلة منحطة عن منزلة المبصر.

أما الاستفهام الآخر: (أفلا تتذكرون؟) فهو لإنكار الواقع الذي هم عليه من عدم التفكر القائد إلى الحق المبين، وربما لتوبيخهم على تركهم إعمال الفكر والتفكير الصحيح وتحفيزهم للترغيب في التفكير أملاً أن يهتدوا وينقادوا للحق المبين.

أما سياق هذه الآية الكريمة فهو مبني على الثنائيات: (تصورهم عن حال النبي(ﷺ)/ وحقيقة واقعه، و الأعمى/ البصير)، وكأن الثنائية الثانية معادلة للأولى، أو تفسير لها: فالنبي(ﷺ) هو البصير، وهم في تصورهم كالعُمْيِ أو هم فعلاً عُمْيٌ عن الحق. وكأن الأسلوب تشبيه ضمني. فبعد هذه المقارنة والمقابلة الضدية – التي كان الاستفهام الأول جزءاً منها- المبرزة للمفارقة انطلاقاً من القاعدة السائدة: (والضد يبرز حسنه الضد)، بعد ذلك جاء الاستفهام الأخير يحمل النكير على من لم يستوعب الفرق ويدرك الحق. والتعبير بمدخول الاستفهام (تتفكرون) في غاية الانسجام مع ما سبق، كيف إنهم لم يعملوا فكرهم في الوصول إلى الحق بعد تلك المقتضيات والدوافع.

ب. قوله تعالى:

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (157) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ(158)﴾

هاتان الآيتان ورد فيهما استفهامان هما (فمن أظلم..) و (هل ينظرون)؟

الأول بصيغة (أفعل التفضيل من الظلم) الذي هو وصف للمشركين؛ لأنهم أظلم الظالمين، وهذا الأسلوب للنفي غالباً كما سبق.

والاستفهام الأخير هو (هل ينظرون)؟ وغرضه النفي أو الإنكار، والنفي ترجح عند المتقدمين: يقول فيه أبو السعود: "أي ما ينتظرون"[1]، وأبو حيان قال: "أي، ما ينظرون إلاَّ أن تأتيهم الملائكة"[2].

ويترجح كون النفي إنكاري عند المتأخرين: يقول الآلوسي: "هل للاستفهام الإنكاري"[3]، وتابعه ابن عاشور بقوله: "وهل للاستفهام الإنكاري"[4].

ومن خلال هذي الأقوال يترجح لدينا أن (هل) للاستفهام الإنكاري، وهو المعنى المركزي، بيد أنها تتولد بعدها معانٍ مجازية أخر من أظهرها التهديد والوعيد لهم .

وفي (هل ينظرون) اُستعملت (هل) بدلاً عن الهمزة لتحقيق ما بعدها من صور الانتظار والترقب.

ومن الناحية التركيبية كان للاستفهامين أثُرهما في ترابط كل من الآيتين على حده، وفي اتساقهما معاً، فالفاء التي دخلت على اسم الاستفهام (فمن اظلم) قامت بدور ترتيب ما قبلها على ما بعدها. و واو الجماعة في مدخول الاستفهام الثاني (هل ينظرون) تتصل بما بعدها من ضمائر، وهي ذات اتصال واشتراك بواو يصدفون قبلها، ويشترك في التهديد مع الظالمين المكذبين المعنيين بالاستفهام في الآية الأولى، وهكذا ربط الاستفهامان ومدخولهما ومدلولهما سياق الآيتين ودلالتهما ربطاً متسقاً.

ثانياً: الاستفهامات للتقرير وما يتصل به:

1. **مما يحتمل التقرير والتعجب قوله تعالى:**

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ(53)﴾

هذه الآية اعتمدت على استفهامين اثنين لتدل على (صراع، ونتيجته): صراع قائم بين جماعتين بينهما تفاوت في المنزلة: جماعة المسلمين التي سارعت إلى الإسلام، وجماعة المشركين التي استنكفت عن

1. أبو السعود: 203/3.
2. التوحيدي، ابو حيان، البحر المحيط، 258/4.
3. الآلوسي، محمود، روح المعاني، 63/8.
4. ابن عاشور، محمد، التحرير والتنوير، 184/8.

الدخول في الإسلام ومتابعة النبي(ﷺ) بذريعة أن الذين اتبعوا الرسول(ﷺ) هم مساكين وفقراء ومن ضعفاء الناس. والغالب أن القائم بالاستفهام في (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟) هم كبراء قريش ذووا النفوذ والسلطة، دفعهم لذلك الاستخفاف والتعجب منكرين أن يكون المسلمون أهل فضل عليهم على فقرهم وتواضعهم، ويستعجبون مستنكرين من اختصاصهم بأن يمتن الله عليهم دونهم.

هذا الاستفهام الأول ومدلوله.

أما الاستفهام الأخير (أليس الله بأعلم بالشاكرين)؟ فهو استفهام للتقرير، دخلت فيه الهمزة على نفي فعاد المعنى إثباتاً، وملخص أقوال العلماء في هذين الاستفهامين: بأن الأول للإنكار والتعجب، والأخير للتقرير[1].

ويظهر لي أن في الاستفهام الثاني(أليس الله بأعلم بالشاكرين) معنى آخر غير التقرير، ذلك هو الرد على سخرية الكفار بسخرية مماثلة، وكأن المعنى: نعم من الله عليهم دونكم لأنهم شاكرون، أما أنتم فلا تستحقون ذلك لجحودكم وغروركم. وهذا يزيد البناء قوة ارتباط، وإحكام نسيج. والله أعلم.

وثمة وقفة مع مدخول الاستفهام الثاني، وهو اسم الإشارة (هؤلاء) فإن فيه دلالةً على أن المشركين كانوا يضمرون في أنفسهم احتقاراً للمؤمنين، فعبروا عنهم باسم الإشارة للموضع المشار إليه في المكان القريب تنزيلا لقرب المكانة وضعتها منزلةُ. كما أن هناك ما يلفت النظر بدخول حرف الجر (الباء) على صيغة المبالغة (أعلم)خبر ليس لغرضين التأكيد أولاً، وثانياً لقوة الترابط بين المسند والمسند إليه.

وخلاصة القول في هذه الآية الكريمة أنها تحكي لنا ثنائية ضدية من البشر: (عرض عليهما الحق/وتعرضتا للفتنة، ضعفاء/ كبراء، استجابوا/ استنكفوا، فازوا / ونجوا/ فتنوا/ وهلكوا)، فكان الاستفهامان في الآية تتويجاً لهذه الثنائية، إحداهما اختص بها الاستفهام الأول: (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟)، والثانية كان مدلول الاستفهام الثاني(وهو اتصافهم بالشكر) حظها: ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين؟﴾. وبهذا يكون الاستفهامان قد جعلا من التركيب كلًا متماسكاً منسجماً متسلسلاً بإيجاز بديع، وتكثيف بليغ.

2. **مما يحمل التقرير والتعجب والتبكيت قوله تعالى:**

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40)﴾

---

1. ينظر: الزمخشري، جار الله، الكشاف، 22/2، تفسير أبي السعود، 140/3، الآلوسي، محمود، روح المعاني، 162/7، وابن عاشور، التحرير والتنوير، 254/7.

هذه الآية الكريمة ورد فيها استفهامان. تصدرهما فعل الأمر (قل) الذي يعني الرسالة البالغة الأهمية لمواجهة المقول لهم بما بعد الفعل وهو الاستفهام ومدخوله، فيجب على الموجه إليه الأمر بالقول من الله وهو محمد (ﷺ) أن يبلغه على التو من تلقيه. والمقول له – الذي هو مدخول الاستفهام– هم الكافرون المكذبون برسالات الله وآياته، وقد واجهتهم الآية بالسؤال لهم: كيف يتصورون حالهم إذا نزل بهم العذاب من عند الله، أو جاءتهم الساعة؟ فإلى من يكون المفزع والدعاء ليكشف عنهم العذاب النازل، أو ينجيهم من أهوال الحشر؟.

ويأتي جواب الاستفهام لــ(أرأيتكم)؟ استفهام ثانٍ هو قوله تعالى: ﴿أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾؟ وهو تقرير مباشر لــ ﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾. وعلى الرغم من أنه مجازي لا يحتاج إلى جواب؛ إلا أن القرآن يذكر أجوبة الاستفهام المجازي إذا كان المطلوب بها حقيقة خارجية ثابتة، ليس لعمل الخيال فيها مجال، وهنا الأمر كذلك، فلا مجال لعمل الخيال في تعيين المفزع إليه في الشدائد والكرُب الجسام؛ لأن المفزوع إليه هو الله عز وجل.

وجملة الاستفهام(أرأيت) معناها: أخبرني قال به سيبويه والأخفش والفراء والفارسي وغيرهم على ما أورده أبو حيان[1]وقد فسَّر معنى جملة الاستفهام (أرأيتكم) بالتعجب من عقبى الكلام الذي تصدَّره الاستفهام. ثم شاع هذا عند البلاغيين جميعهم، كما أن المعنى عندهم مجازيٌ دائما ولا يجيء حقيقة. بل يرى الكرماني وغيره أن هذا الأسلوب فيه مجازان هما: إطلاق الرؤية (رأيت) التي هي مدخول الاستفهام، وإرادة العلم أو الإخبار. وهو على هذا مجاز مرسل، وآخرهما(أيهما؟ ومن هو؟) جعْل الاستفهام بمعنى الأمرــــ أي أخبرني ـــــ بجامع الطلب في كل منهما. وهو على هذا مجاز استعاري شبه الأمر بالاستفهام.

ومن المعاني البلاغية لهذا الأسلوب أنه لا يستعمل إلّا في الاستخبار عن الحالات العجيبة، والمراد منه استحداث عجب عند المخاطب، كون المقام يتطلب ذلك.

والزمخشري فسَّر (أرأيتكم) بــــ (أخبروني)، وسكت عن (أغير الله تدعون)، غير أن السياق يظهر أن هذا الاستفهام (أغير الله تدعون؟) استئناف مسوق للتبكيت. فلما تقدم المفعول به (أغير) على الفاعل جعله

1. التوحيدي، أبو حيان، البحر المحيط: 126/4.

للقصر، والمعنى: أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم عذاب؟ أم تدعون الله دونهما؟[1]. فالمراد من الاستفهام هو التبكيت ومناط الاستخبار هو(أغير الله تدعون)[2]. والمعنى: أخبروني. وذهب أبو السعود إلى أن الاستفهام هنا للتبكيت[3]، بخلاف ما يذهب إليه الزمخشري من أن الله ينكر على المشركين اختصاص أصنامهم بالدعاء. أما كلام الرازي فيفهم منه أن الاستفهام للتوبيخ لهم والإنكار عليهم قال: "إذا كنتم ترجعون عند الشدائد إلى الله تعالى لا إلى الأصنام، والأوثان فلِمَ تقدمون على عبادة الأصنام التي لا تنتفعون بعبادتها البتة"؟[4]

وأما ابن عاشور فيجعل الاستفهاميين لمعنيين اثنين أولهما (أرأيتكم) للتقرير، وآخرهما (أغير الله تدعون) للتعجب من حالهم في الاستمرار على عبادة الأصنام، مع أنها لا تضر ولا تنفع.

وتركيب الاستفهام الأول (أرأيتكم..؟) في هذه الآية الكريمة لهُ أثر كبير: فقد اقترن بأسلوب الشرط مما جعل هذا الاقتران يضفي على جملة (أرأيتكم) تفخيمين أحدهما في التركيب وآخر في المعنى. بل إن الغرض العام من هذا الاستفهام هو استحضار المستفهم عنه وتصوره ذهنياً لاستحضار وتصور الحكم عليه، لحضوره ومثوله في النفوس. وقد جاء التعبير بهذا التصور الذهني(أرأيتكم) بالرؤية (البصرية ـــــ رأى) في استحضار ذهني مُدرَكٍ حتى لكأن المعني به يراه ماثلاً أمامه.. وذلك أن السياق في الآية الكريمة يشير إلى أن الله تعالى يدعو المشركين إلى أن يتصوروا حلول ووقوع العذاب بهم، ثم لا يلبث أن يواجههم بالاستفهام الثاني (أغير الله تدعون)؟ ثم يأخذ كل ما في نفوسهم من أسباب العناد والتكبر، فيقول: (إن كنتم صادقين) وهذه الخطوات متتابعة تأخذهم تدريجياً إلى أن يعودوا إلى الفطرة السليمة.

والتركيب البديع في هذه الآية الكريمة اتسم بالمراوحة التراتبية بين الاستفهام والشرط في جزئي الآية: ﴿**أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ...،أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ..**﴾ والاستفهام والشرط كلاهما أسلوب إنشائي، ولكليهما حق الصدارة في الذكر والورود؛ لكن هنا تصدر الاستفهام في الموطنين؛ لأنه المحور الأساس الذي

1. الزمخشري، جار الله، الكشاف: 18/2.
2. الآلوسي، محمود، روح المعاني: 148/7.
3. تفسير أبي السعود، 135/1.
4. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير: 224/7.

يدور فيه وبه وحوله السياق، وينبثق منه الخطاب، وبه يتحقق مدلول الشرط بعده، وعليه يتكئ. والله أعلم.

ثالثاً: لوحات استفهامية: ثمة مواطن في السورة الكريمة لم يقتصر حضور الاستفهام فيها في موضع أو موضعين وحسب، بل ورود بكثافة وانثيال على نحو أكثر مما سبق، وبالتالي ستكون دلالاته متنوعة وأهميته أكثر، وهو في الأخير سيكون لوحة موحدة البناء، متناسقة التركيب، من ذلك:

(1)

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ(46) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ(47)﴾

جاء في هاتين الآيتين مواجهتان للمشركين، اتكأتا على لوحة استفهامية متماسكة البناء كثيفة الدلالة، ففي الآية الأولى يقال لهم: تصوروا لو أن الله سلب عنكم حواسكم التي بها تبصرون وتسمعون، وحجَّر قلوبكم فلم تحس بشيء، هل هناك إله غير الله يُرْجِع إليكم ما سلبه الله منكم؟.

والآية الثانية: يرد فيها القول بأن يتصوروا أن العذاب قد حل بهم وهم في مقدمة من يصيبه الهلاك نتيجة للظلم.

والآيتان فيهما أربعة استفهامات هي:

ـــــ **(قل أرأيتم):** بمعنى اخبروني عند جمهور النحاة والبلاغيين، بيد أن الغرض منه إثارة ذهن المتلقي وتحفيزه، ولفت الأنظار وتهيئة النفوس إلى تلقي مفهوم القول من بعد الاستفهام، فهو بمثابة توطئة لتمكين المعنى المراد من قلوب المخاطبين بغرض التخويف والترهيب.

– الاستفهام الثاني **﴿من إله غير الله﴾**؟ وهو لإنكار التوقع لا إنكار الواقع فالواقع هو (لا إله إلا الله) والتوقع الذي سُلِّط عليه الإنكار هو نفي أن يقع في المستقبل إله غير الله؛ وذلك بغرض التيئيس من الآلهة التي تعبد من دون الله ليقنعوا منها.

وفضلاً عن التخويف والترهيب نلحظ أن الاستفهامين في الآية الأولى يتعاضدان ليؤديا دوراً محورياً هو لفت انتباه المخاطبين لقدرة الله عليهم، وتمكنه من نفوسهم، فهو الذي أعطاهم السمع والأبصار، وقادر

على سلبهم إياها، وقادر على إعادتها لهم، وليس ذلك حصراً على السمع والأبصار، بل هو هكذا الأمر في كل أمورهم.

– وأما الاستفهام الثالث: ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله؟**﴾ فهو مقتضب للتخويف والترهيب، لكن الاستفهام الرابع تأسس عليه: ﴿**هل يهلك إلا القوم الظالمون؟**﴾ وهو للتقرير من جانب، ومن جانب آخر هو للنفي؛ وذلك لغرض الوعيد الشديد: فمن جانب أن الظالمين لن ينجو منهم أحدٌ للتقرير، ومن جانب أن الصالحين سينجون جميعاً وأنهم في مأمن من العذاب الأخروي. وقد أضفى الاستفهام على بناء كل من الآيتين رباطاً محكماً، لكن أثر الاستفهام في إحكام بناء الآية الثانية أقوى وأبرز.

وتكرار فعل الأمر (قل) قبل الاستفهام في كلا الآيتين إيماء إلى استقلال كل آية بمواجهة خاصة لدحض الباطل، وللإيذان أيضاً بأن الرسالتين اللتين تحملهما الآيتان بالغتا الأهمية لمحاجة المشركين بدليل فصل (قل) الأولى عن (قل) الأخيرة مع قيام دواعي الوصل بينهما لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين. و الملاحظ زيادة الكاف في (أرأيتكم) للدلالة على التفاوت بين متعلقي الرؤية في الموضعين.

(2)

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)﴾

هاتان الآيتان ورد فيهما أربعة استفهامات:

الاستفهام الأول: ﴿**أتحاجوني في الله وقد هدان**﴾؟ وهو استفهام لإنكار واقع أبي إبراهيم (آزر) وقومه، فلم يكتفوا بضلالهم وعبادتهم للأصنام، بل راحوا يجادلون أصحاب الهدى ليردوهم إلى الضلال، فأنكر عليهم إبراهيم عليه السلام جدالهم العقيم في شؤون المعبود الحق وهو الله جل جلاله تبع ذلك زجرهم عن الشرك.

(وقد هدان) حال مؤكدة للإنكار الذي حمله الاستفهام (أتحاجوني؟). وفي إيثار المضارع(تحاجوني) الذي هو مدخول الاستفهام تصوير لتتابع جدالهم وبيان لتمسكهم بالباطل.

والاستفهام الثاني: ﴿**أفلا تتذكرون؟**﴾ يوبخهم، وينكر عليهم عدم تذكرهم. وهذا الاستفهام يعد تذييلاً للآية الكريمة وقد أدى دوراً كبيراً في ترابط بناء الآية الكريمة، ومما قوّى ذلك الترابط حذف مفعول فعل(تذكرون) ليشمل كل ما يصدق عليه مما سبق ذكره في الآية أو أوحت به.

والاستفهام الثالث: في الآية الثانية (**وكيف أخاف؟**) لنفي حصول الخوف منه، وفيه أيضاً التعجب من حالهم والإنكار عليهم بتوقعهم تخويفه مما يشركون به، مع أنهم لا يخافون أنهم أشركوا بالخالق سبحانه.

ثم إن في التغاير بين الماضي والمضارع (تشركون/ أشركتم)، و(أخاف/ تخافون)، إشارتين إلى عدم الخوف بمعنى أنه لا يخاف أصنامهم البتة وفي تقديم (بعد) عليكم، إعلام بعموم النفي أي أن الله لم ينزل بالشرك سلطانا قط.

والاستفهام الأخير (**فأي الفريقين أحق بالأمن؟**) على أغلب الأقوال أنه لإلجائهم إلى الجواب الصحيح؛ ذلك أن الاستفهامات السابقة أفادت من الحِجاج، ووظفته لتصل بالمخاطبين إلى درجة الإقرار والتسليم الذي من أجله جاء الاستفهام الرابع هذا ﴿**فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ..؟**﴾. وتأثيره في التركيب هو حمل المخاطب أن يفكر حتى يصل بطريقة تفكيره إلى الفريق الآمن. فالثلاثة الاستفهامات الأول مُساقةٌ للإنكار بوجه عام مع فروق جزئية من موضع إلى آخر، والرابع جاء لإلجاء المخاطبين بالتسليم؛ لذلك أُتبِع هذا الاستفهام بالجواب: ﴿**الذين آمنوا..أولئك لهم الأمن..**﴾ إذ لم يعد بوسعهم غير التسليم.

وبهذا البناء والاتساق كانت الاستفهامات رابطة لبناء الآيتين ربطاً محكم النسيج، متسلسل البناء.

ومما يلفت النظر هنا توافر تكرار حروف معينة في الآيتين الكريمتين: فحرف النون ورد أربع عشرة مرةً، وهو حرف(جهر؛ توسط، استفال، انفتاح، إصمات)، والميم ورد ثلاث عشرة مرةً وهو حرف (جهر، توسط، استفال، انفتاح، ذلاقة)، والكاف والتاء ورد كلٌّ منهما تسع مرات وهما حرفا:(همس، شدة، استفال، انفتاح، إصمات). والهاء والراء ورد كلُ منهما سبع مرات، والهاء حرف (همس، رخاوة، استفال، إصمات، انفتاح) بينما الراء حرف (جهر، توسط، استفال، انفتاح، ذلاقة، تكرار) والقاف ورد خمس مرات، وهو حرف (جهر، شدة، استعلاء، انفتاح، إصمات)والشين ورد ست مرات وهو حرف (همس، رخاوة، استفال، انفتاح، إصمات، تفشي)؛ وورود هذه الحروف التي لها الصفات بهذي الكثافة

يعطي إضاءة واضحة لضعف حجة المشركين أمام إرغامهم إلى أن يجيبوا إجابات صحيحة مقنعة لكنهم لا يملكون حجة ولا جوابا .

(3)

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)﴾

هاتان الآيتان تمثلان لوحة استفهامية مركزة على نحوغير متكرر وليس له نظير في السورة الكريمة، ولم يتكرر في القرآن الكريم، إذ تكرر الاستفهام هنا ثماني مرات.

وتتمحور الاستفهامات وتشترك في دلالة مركزية (مجازية) لمعنى واحد ينتظمها جميعها، هو الإنكار، فهو المعنى العام المحوري الذي تحمله الاستفهامات افي الآيتين الكريمتين، كما أشار إليه المفسرون والبلاغيون[1]،مع تولد معانٍ إضافية تولدت عن الإنكار، قد تختلف عن دلالته في بعض صورها.

والثمانية الاستفهامات التي وردت في الآيتين تدور حول الإنكار على ادعاء المشركين أن الله حرَّم ما حرموه، والاستفهامات هي:

(آلذكرين حرَّم ـــــــ أم الأنثيين ـــــــ أمَّا اشتملت عليه أرحام الانثيين)؟

آلذكرين حرِّم ـــــ أم الأنثيين ـــــ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ـــــ أم كنتم شهداء ـــــــ فمن أظلم.

إنكار ـــــــــــ> تكذيب ـــــــــ> توبيخ ـــــــــــــ> نفي ـــــــــــــ> تولد عنه تقرير وتبكيت.

فالصفة الأولى (تولدت عن المعنى الأصلي) ـــــــــ> (لشهادتهم) ـــــــــ> ظلم الافتراء.

---

1. ينظر مثلا: الزمخشري، الكشاف، 59/2، تفسير أبي السعود، 192/3،الآلوسي، روح المعاني، 81/8، التوحيدي، البحر المحيط، 239/4، الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص90، ابن عاشور، التحرير والتنوير، 132/8.

هذه الكثافة في استعمال الاستفهام على هذا النحو قليل أو نادر في القرآن الكريم كما أسلفنا، وما كان استعماله عبثاً. وقد ترتب على هذه الكثافة في استعمال أسلوب الاستفهام، كثافة في استعمال بعض الألفاظ، نحو: آلذكرين- الأنثيين- حرم، وسرد أجناس من الحيوانات. كل ذلك كفيل بأن يجعلنا نقف مع هاتين الآيتين، ونستكنه دلالاتهما، ونضع أيدينا على أهمية القضايا التي تعالجانها، وحول قضية التشريع والتحليل والتحريم التي تنصب فيه الاستفهامات الثمانية لتقرير الحق لله وحده الذي لا يجوز المساس به أو الاقتراب منه، فهو الحكيم الخبير سبحانه وتعالى بما يصلح حال الناس.

الملاحظ أن الاستفهام قد خرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ(**الإنكار رأسها**) تفهم من سياق المقام؛ لأنه دخل في نطاق الجدل القرآني للمشركين؛ إذ إن الآيتين سيقتا بأسلوب الاستفهام الإنكاري ليرجع المشركون إلى أنفسهم؛ فيلتمسوا الجواب الصحيح. ومعلوم أن العدول من الإخبار إلى الاستفهام هو حملٌ للمخاطب على الاعتراف بالحق بعد التدبر والأناة.

وقد نص ابن هشام ــــ فيما نقله عنه السيوطي في "الأشباه والنظائر" على الاستفهام الذي تفيده "أم" المتصلة بأنه لا يكون إلا حقيقيا.. [1]. ويرجح أحد الباحثين أنه قد حصل في العبارة خطأ في النقل أو تصحيف إذ إن الاستعمال القرآني ينفيها[2].

وفي هاتين الآيتين جاء الفعل "حرَّم" فاصلاً بين المتعاطفين. ويعدُّ هذا الموضع من الشواهد المتداولة عند علماء المعاني على إنكاره؛ ثمَ يعطف على ذلك المعمول بـــ"أم"، فيصير إنكار التعلق بأحد المتعاطفين أو المتعاطفات إنكاراً لأصل الفعل؛ لأن الفعل لابد له من معنى يتعلق به، والإنكار هنا إنكار لأصل التحريم. وأما ابن عاشور فيرى أن الاستفهام للإفحام والتهكم[3].

نتائج البحث وخاتمته:

يمكن إيجاز ذلك في النقاط الآتية:

1.السيوطي، جلال الدين، الأشباه والنظائر، 62/4.

2. ينظر : حميدة (1999)، د مصطفى، أساليب العطف في القرآن الكريم ، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان. ص 2. الجرجاني، عبد القاهر(1413هـ - 1992م)، دلائل الإعجاز، ص 78. السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ص151. وينظر شروح التلخيص 298/2 ـ299.

3. ابن عاشور، محمد الطاهر، 149/8.

1. ورد الاستفهام في سورة الأنعام في أربع وثلاثين آية، موزعاً على ثلاثةً وأربعين تركيباً؛ ولهذا الحضور الكبير دلالته وأهميته.

2. استأثر الاستفهام بالهمزة بالنصيب الأكبر والحضور الأوفر في هذه السورة الكريمة.

3. تنوع حضور الاستفهام في السورة الكريمة: ففي مواطن جاء مفردا، وفي مواطن تعدد؛ كل ذلك بحسب ما تقتضيه الرسالة المراد إيصالها للمخاطبين.

4. لأسلوب الاستفهام أثر كبير في تماسك البناء وانسجام السياق النصي حيثما ورد.

5. كون السورة مكية؛ فقد دارت الجملة الاستفهامية حول الاهتمام بالقضايا العقدية الرئيسة، وإبطال مضاداتها.

6. تنوعت الموضوعات التي صيغ من أجلها الاستفهام في السورة الكريمة.

7. من أدوات الاستفهام ما يحمل دلالة واحدة واضحة، وهذا قليل، وأغلبها يحمل أكثر من دلالة، ومنها ما يحتمل تعدد الأوجه؛ ولكل ذلك غايته البلاغية والإبلاغية.

8. دلالات: الإنكار، ثم النفي، والتقرير تستحوذ على أغلب أدوات الاستفهام في السورة الكريمة؛ وهذا مرتبط بطبيعة الموضوعات التي تعالجها السورة الكريمة، وكونها مكية.

قائمة المراجع:

1. ابن عاشور، محمد الطاهر،(1420هـ، 2000م،)، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ بيروت لبنان، ط 1.

2. ابو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، سيبويه، الكتاب ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار الجيل، بيروت، ط 1.

3. التوحيدي، أبو حيان،(د.ت) البحر المحيط مطبعة النصر الحديثة، الرياض.

4. أبو موسى، محمد محمد (1408هـ ـــ 1987م)، دلالة التراكيب، ط2.

5. السيوطي، جلال الدين(1417هـ ـــ1996م) الأشباه والنظائر، دار الكتب العربي، بيروت، ط3.

6. الآلوسي، شهاب الدين(1415هــ)، روح المعاني، تحقيق:علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، طــ1.

7. الأنصاري، ابن هشام،(1985م)، مغني اللبيب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط 6.

8. بحيري، سعيد حسن، (1997م)، علم لغة النص- المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون- الشركة المصرية العالمية للنشر، لونج مان، ط 1.

9. الجرجاني، عبد القاهر، (1413هــ - 1992م)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط 3.

10. حسان، تمام، (1420هــ- 2000م)، البيان في روائع القرآن، عالم الكتاب، ط 2.

11. حميدة، مصطفى،(1999م)أساليب العطف في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ،ط1.

12. الدرويش، محيي الدين،(1422 هــ ــ2001م)، إعراب القرآن وبيانه، دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، ط 8 .

13. الرازي، فخر الدين(1420 هــ)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3.

14. الزمخشري، جار الله، (1407هــ)،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 3 .

15. السكاكي، يوسف بن أبي بكر(1407 هــ - 1987 م)، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ـــ بيروت، لبنان، ط2.

16. شروح التلخيص(مختصر السعد التفتازاني، ومواهب الفتاح لابن يعقوب، وعروس الأفراح للسبكي، والإيضاح للقزويني، وحاشية الدسوقي)، مطبعة عيسى البابي وشركاه ـــ مصر.

17. العمادي، أبي السعود،(د ت)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

18. العمايرة، خليل أحمد(1407هـ - 1987م)، في التحليل اللغوي، مكتبة المنار، الزرقاء ـــ الأردن، ط 1.

19. قطب، سيد، (1412 هـ،)في ظلال القرآن، دار الشروق ـــ القاهرة، ط 17.

20. رضا، محمد رشيد،(1990 م) تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

21. الماوردي، أبو الحسن، (د.ت)، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت.

22. المرادي، الحسن بن قاسم،(1413هـ ـــ 1992م) الجنى الداني، تحقيق: د فخر الدين قباوه ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ لبنان، ط 1.

23. المساري، بشير عبد الله(جمادى الأولى 1432هـ)، لغة الخطاب الدعوي، كتاب الأمة، العدد 143.

24. الموصلي، ابن يعيش،(1422هـ ـــ 2001م)، شرح المفصل، تقديم وفهرست: د إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ـــ لبنان، ط 1.

جامعة الناصر

AL-NASSER UNIVERSITY